مجلة أسئلة و رؤى

مجلة دولية نصف سنوية | مجلد رقم: 03 عدد رقم:05 و 06

ISSN : 2773-2975 | E-ISSN 2830-8794

https://www.asjp.cerist.dz/ar/PresentationRevue/833

الجماعة الإباضية في الجزائر والمسألة الجيلية في سنوات الألفين. فرضية للمناقشة

La communauté ibadite en Algérie et la question générationnelle dans les années 2000.

Éléments de débat

جيلالي المستاري[1]	باحث في المركز البحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية	dmestari2014@gmail.com

تاريخ الارسال: 2023/02/15	تاريخ القبول: 2023/02/27	تاريخ النشر: 2023/04/22

ملخص:

إثراء للنقاش حول تحولات الجماعة الإباضية في الجزائر بعد سنوات الألفين، أنطلق من فرضية تأثير المسألة الجيلية والعلاقة المتوترة بين الشباب والسلطة الجماعاتية (العزابة) في تأجيج النزاعات والاحتجاجات المحلية التي عرفتها المنطقة في الفترة الأخيرة، وأعتمد في ذلك على ملاحظات ومقابلات مستقاة من دراسة ميدانية ذات منحى سوسيو-أنثروبولوجي. عرفت المنطقة، منذ الاستقلال، عددا من النزاعات أغلبها جماعتية ذات طابع محلي ميزابية–إباضية من جهة وعربية-مالكية من جهة ثانية. وفي الفترة ما بين 2004 و2015، رصدنا نمطا مختلفا من الاحتجاجات، وهي الاحتجاجات داخل الجماعة الإباضية نفسها، والتي عبّرت عن أزمة النظام الجماعاتي، وهو ما قد يفتح المجال لمناقشة الانتقال على المستوى المحلي من أزمة الدولة الوطنية في تدبير الشأن العام إلى أزمة الجماعة في تدبير الشأن الجماعاتي.

الكلمات المفتاحية: الإباضيون، المسألة الجيلية، العزابة، الشباب، الاحتجاجات، غرداية، الجزائر.

[1] .Centre de Recherche en Anthropologie Sociale et Culturelle, 31000, Oran, Algérie

مجلة أسئلة ورؤى

جيلالي المستاري[1]	باحث في المركز البحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية	dmestari2014@gmail.com

Résumé :

En se basant sur les données d'une étude socio-anthropologique, nous nous proposons de traiter des turbulences de la question générationnelle exacerbée par les rapports avec l'autorité communautaire locale et ce, à travers l'étude des différentes contestations survenues dans la région après les années 2000. Depuis l'indépendance, Ghardaïa a connu un certain nombre de conflits, dont la plupart sont d'ordre communautaires entre les Mozabites-Ibadites et les Arabo-Malikites. A contrario, la contestation populaire qui a secoué cette région durant la période 2004-2015, a emprunté un schéma différent, inter-communauté ibadite. Notre approche se veut d'expliquer ce nouveau type de conflit au niveau local, en transcendant le débat autour de la crise de l'État-nation dans la gestion de la chose publique à, crise de la gestion de la communauté locale.

Mots clés : Ibadites, question générationnelle, *Azzaba*, jeunes, protestations, Ghardaïa, Algérie.

مجلة أسئلة ورؤى

جيلالي المستاري[1]	باحث في المركز البحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية	dmestari2014@gmail.com

تقديم

أنطلق في هذه الورقة من فرضية لإثراء النقاش حول موضوع التحوّل الجيلي داخل الجماعة الإباضية من خلال مدخل النزاعات والاحتجاجات المحلية التي عرفتها المنطقة، وأنطلق في ذلك انطلاقا من ملاحظات ومقابلات مستقاة من دراسة ميدانية ذات منحى سوسيو أنثروبولوجي أنجزت في مشروع بحث: «غرداية: رهانات الجماعاتي والمجتمعي»[2]. وأودّ أن أقف في هذا السياق عند أهمية ثلاثة مفاهيم يمكنها أن تكون مفاتيح لمناقشة هذه الفرضية من الناحية النظرية والمنهجي. أماّ المفهوم الأول فهو "المحلي le local «[3]، لما له من قيمة معرفية في فهم دلالات وأبعاد العلاقات المعقدة بين الفاعلين في المجال الاجتماعي سواء كان الفاعلون أفرادا أو مجموعات، وستختلف المنطلقات والنتائج عن كل ما يتعلق بالمركزي أو الكلي. وأماّ المفهوم الثاني فهو ثنائية الجماعة/ المجتمع حيث الحاجة إلى العودة إلى أهم كتاب كلاسيكي حول الموضوع للباحث الألماني فرديناند تونيز TönniesFerdinand عنوانه : « الجماعة والمجتمع»[4]، حيث تمكننا العناصر التي يقترحها تونيز أي الإقليم، والذاكرة الجماعاتية ونظام المصاهرة وفعاليتها التفسيرية من تحديد معنى الجماعة **communauté** وتمييزها عن المجتمع sociétéعلى المستوى المحلي من خلال خطاباتها وممارساتها وتمثيلاتها، وهي محاولة لفهم طبيعة الرؤى والتصورات التي تشكلها الجماعات حول ذاتها وحول الآخرين وتحليل الاستراتيجيات التي تتخذها للمحافظة على كيانها واستمرارها من جهة وللتفاعل مع الدينامية الاجتماعية المتغيرة باستمرار على المستوى المحلي من جهة ثانية. وأما المفهوم الثالث فهو المسألة الجيلية، حيث تكمن الأهمية المنهجية لفتح مجال المساءلة البحثية حول هذه الظاهرة، ولنا في الإطار النظري للباحث كارل مانهايم KarlMannheim[5] عندما تناول بالتحليل والنقد الأجيال السياسية داخل الحركات الاجتماعية خير موجّه من الناحية الابستمولوجية.

استنادا إلى هذا المعمار النظري والمنهجي، نسائل ظاهرة الاحتجاجات والنزاعات الجماعتية في غرداية من حيث أشكالها وتصنيفاتها وأسباب تكرارها. فقد عرفت المنطقة، منذ الاستقلال بالخصوص، عددا من النزاعات أغلبها جماعتية ذات طابع محلي ميزابية–إباضية من جهة وعربية- مالكية من جهة ثانية، لكن في علاقة ما بتدخل البعد المركزي للدولة الوطنية الناشئة. وكانت مؤشرا وشكلا من أشكال أزمة تدبير الشأن العام في ممارسات الدولة الوطنية في فترة بنائها إلى اليوم. ومع احتجاجات التجار سنة 2004، والثورات التي شهدتمها المنطقة العربية والمغاربية بالخصوص ابتداء من سنة 2011،

---

[2]. أنجزت أولى التحقيقات الميدانية الكيفية حول هذا الموضوع في الفترة ما بين 2009- 2014 ، وذلك في إطار مشروع البحث المؤسسي بمركز البحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية، كراسك، والموسوم: "غرداية: رهانات الجماعاتي والمجتمعي»، أشرف عليه مصطفى مجاهدي، بمعية فريق من باحثي المركز وهم: جيلالي المستاري، فؤاد نوار، عبد الوهاب بلغراس وسيدي محمد محمدي. وتمّ الاعتماد خلال الدراسة على ملاحظات ميدانية ومقابلات مع الفاعلين المحليين من أعيان وشخصيات دينية وشباب وجامعيين وفاعلين في الحقل السياسي والجمعوي على المستوى المحلي.

[3]. أنظر حول هذا الموضوع : كلودين شولي، « أنثربولوجيا و/أو سوسيولوجيا ؟ إلتفاتة إلى الخلف لدراسة ممارساتنا في هذين الحقلين », Insaniyat / إنسانيات، 27، 5-9، 2005.

[4]. أنظر: Tönnies Ferdinand (2010), Communautéetsociété, Paris, Puf.

[5]. Karl Mannheim , Le Problème des générations (1928), (Paris : Nathan, 1990) ,trad. Gérard Mauger

مجلة أسئلة ورؤى

جيلالي المستاري[1]	باحث في المركز البحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية	dmestari2014@gmail.com

وتزامنا مع بروز ارتفاع حدّة أشكال الاحتجاج بين سنتي 2013 و2015، رصدنا نمطا مختلفا من الاحتجاجات لا يقف فقط عند النزاع الجماعاتي التقليدي الميزابي- العربي، بل احتجاجا داخل الجماعة الإباضية نفسها. وعبرت هذه الاحتجاجات «الداخلية « عن شكل من أشكال أزمة نظام جماعاتي يتعرض للنقد في ممارسات تدبيره للشأن الجماعاتي وقد يتعدى ذلك لتهديد الوجود الجماعاتي ذاته، وهو ما قد يفتح المجال لمناقشة الانتقال على المستوى المحلي من أزمة الدولة الوطنية وأزمة الجماعة الإباضية. ومن هنا نتساءل طبيعة هذه الاحتجاجات الداخلية وسياقها؟ وكيف يمكن أن يكون المدخل الجيلي أحد عناصر تفسيرها؟

غرداية: سياق جماعاتي متميّز في الجزائر

نجد في غرداية نموذجين للعمران (القصر المْزابي في مقابل الحي العربي)، ومذهبين دينيين (المذهب الإباضي للمْزابين والمذهب المالكي كمذهب للعْرب وهو في الوقت ذاته المذهب الرسمي للدولة وإن كان ذلك غير مدوّن في الوثائق الرسمية)، كما نجد إثنيتين مختلفتين لغويا (المْيزابيون الذين يتكلمون البربرية أو الأمازيغية المزابية والعربية الفصيحة في العموم والعْرب الذين يتكلمون العربية الدارجة منها والفصيحة). ونلاحظ فضاءين للممارسات الدينية (المسجد الإباضي للمْزابيين الذي يختلف شكل منارته عن المسجد المالكي الذي يرتاده عادة العْرب)، وهناك نموذجان من التعليم (تعليم رسمي تشرف عليه المدارس الحكومية يشمل الجماعتين العربية والمزابية الإباضية في العموم ومدارس حرة وقفية تختص بالجماعة الإباضية فقط)، ونلاحظ شكلين من اللباس بالنسبة للذكور والإناث حيث نستطيع بلمح البصر التفريق بين علاقات الانتماءات للجماعتين فقط عن طريق اللباس. ولا يتطلب الكشف عن هذه الثنائية الوقت الكبير من الملاحظة، بل بإمكان الزائر لمنطقة غرداية[6] أن يقف إلى عدم التجانس بين مجموعتين اجتماعيتين متجاورتين، فنمط تنظيم الإقليم السكني يختلف بين الجماعتين، ونمط التجلي في «الفضاء العمومي» يختلف من حيث اللباس، وفضاءات الممارسة الدينية تختلف حسب المذهبين والجماعتين. وتتجلى أهمّ السمة للجماعة الإباضية في غرداية في وجود شكل من النظام الاجتماعي المميز يتجاوز في تاريخه تاريخ «الدولة الوطنية الحديثة» هو نظام «العزابة»، حيث تشرف هيئة دينية مكونة من شيوخ وعلماء دين، تسمى حلقة العزّابة، على كل مناحي الحياة اليومية الدينية منها والاجتماعية وحتى السياسية للجماعة الإباضية في «القصور» (القرى) ذات التواجد الميزابي الإباضي. وفي المقابل تتمثل المجموعات العربية الموجودة في غرداية مخياليا منطق «القبيلة» (الشعانبة، المذابيح، المرازيق...) ذات الانتماء العربي، حسب تصريحات شركاء البحث. وعندما نتتبع خطابات شركاء البحث المختلفة في «منطقة غرداية» نجد أنفسنا أننا لسنا أما جماعات وإنما أمام نظام جماعاتي يبني العديد من الخطابات، الممارسات والتمثلات حول الحاضر، الماضي وحول المستقبل، ويكفي النظر لنظام القرابة الذي يكاد يكون جماعتيا مغلقا لنكتشف رهانات التنظيم الجماعاتي في الواقع.

---

[6]. نقصد بمنطقة غرداية الأقاليم التي تتواجد فيها القصور التاريخية السبعة القديمة : قصر غرداية، قصر بني يزقن، قصر بونورة، قصر مليكة، قصر العطف، قصر بريان وقصر القرارة. ونشير إلى استعمال لفظ «المدينة» أو «القرية» للتعبير عن فضاء «القصر».

مجلة أسئلة ورؤى

جيلالي المستاري[1]	باحث في المركز البحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية	dmestari2014@gmail.com

الأزمة الداخلية للسلطة الجماعاتية دافع للاحتجاج الجيلي

هناك عنصر ذو أهمية في فهم دلالة ومعنى الاحتجاج الجيلي في وضع جماعاتي، يتعلّق أساسا برهانات السلطة الجماعاتية وأزمتها الداخلية. فعندما ندخل مثلا إلى أحد «القصور» التي تم إنشاؤها حديثا كتوسع عمراني لقصر «بني يزقن»، ونعني بذلك قصر «تافيلالت الجديد» لا نلاحظ مسجدا إباضيا[7] جامعا بمنارته المميزة، إذ لا يوجد غير مصليات خاصة بالصلوات الخمس، وعندما يُطرح السؤال على المشرفين على مشروع القصر الجديد عن سبب عدم بنائه للمسجد الجامع، تتم إحالتنا إلى جواب مفاده رفض عزابة «بني يزقن» لوجود منارة ثانية تنافس منارة القصر القديم، ويبرّر ذلك بخطاب حول «وحدة الجماعة»، حيث لا تتم هذه «الوحدة» إن لم « تخضع الجماعة كلها لمنارة واحدة هي منارة القصر القديم».

التمسنا من خلال مقارنة أولية بين مختلف خطابات الفاعلين المعنيين حول «منارة القصر الجديد» وجود نقاش وتباين للمواقف داخل الجماعة المزابية ببني يزقن حول جدوى أو عدم جدوى وجود المنارة. يبدو النقاش حول المنارة بين القصر الجديد والقصر القديم نقاشا حول سلطة عزابة بني يزقن على القصر الجديد وما الحديث عن وحدة المنارة إلا شكل من أشكال تبرير ضرورة الحديث عن وحدة للسلطة الدينية والاجتماعية الجماعاتية و محاولة لرفض التخلي عنها أو تجزيئها.

الخطاب الاحتجاجي الإباضي المحلي ومطلب الاعتراف

يعدّ موضوع الاعتراف بالمذهب الإباضي في الخطاب الرسمي مطلبا مركزيا في فهم الاحتجاج الجماعاتي المحلي ذي الطابع الجيلي. ففي مقابل تذبذب الخطاب الرسمي اتجاه المذهب الإباضي، يبدو أن الخطاب الديني الإباضي المحلي، من خلال دراستنا الميدانية في فترتها المحدودة (لا يمكن أن نحكم على فترات سابقة) تحوّل إلى خطاب يستهدف تجاوز محليته وخطابه الجماعاتي المحدود، وأصبح يطمح لأن يسوّق لنفسه، وقد برز هذا المنحى من خلال عديد الملتقيات التي نظّمت حول الشخصيات الإباضية المرموقة، إضافة إلى نشر وطباعة المخطوطات حول التاريخ المحلي للفرقة الإباضية بل ورقمنتها و وضعها على صفحات المواقع الإلكترونية من خلال عديد الجمعيات المهتمة مثل جمعية أبي إسحاق اطفيش لحماية التراث وغيرها. كما نجد أن هناك جمعيات محلية الجمعية «المسورية»، وبإشراف مباشر من الهيئات العرفية، تهتم بالتعريف بالمذهب الإباضي على المستوى الوطني والدولي.

وفي مقابل هذه التوجهات العامة لأعيان الإباضية، كان مطلب «الاعتراف الرسمي « بالمذهب الإباضي أحد أهم المطالب التي نادى بها الشباب والجمعيات الحقوقية المحلية. ونجد تأويلا مهما لهذا المطلب في خطاب أحد الناشطين حيث يعد الإباضية أقلية مضاعفة (دينية ولغوية على حد سواء)، ويربط تاريخ المذهب الإباضي بمذهب الاعتزال وما كان يمثله من عقلانية في التراث الإسلامي، عقلانية يمكن أن تؤسس إرثا لبناء فكر وممارسة للمواطنة اليوم. ولعل أهم الموضوعات التي تشكّل محاور المناقشات داخل الخطاب الإباضي المحلي اليوم هي موضوع « رفض صفة الخوارج». فقد كانت في نظرهم

---

[7]. المسجد بمنارته المميزة هو العلامة الدالة على وجود العزابة أو السلطة الجماعاتية في القصر الإباضي.

جيلالي المستاري[1]	باحث في المركز البحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية	dmestari2014@gmail.com

نتيجة التشنيع الذي تعرضت له هذه الفرقة الدينية في مصنفات كتب الملل والفرق والنحل حيث يعد أغلب مؤلفيها من المذهب السنّي.

وبناء على هذا المنحى نجد أن النخب الإباضية في الجزائر ترفض هذا الوصف فهم يعدون أنفسهم أنهم « خرجوا مرتين «، خرجوا على الإمام علي وخرجوا من الخوارج، في إشارة إلى رسالة عبد الله بن إباض إلى عبد الملك بن مروان وتبرّئه من أفعال الأزارقة الغلاة في نظره، إضافة إلى الردود العقائدية للإباضية على الصفرية خاصة مع بداية القرن الثالث الهجري من كتاب أبي حفص عمروس بن فتح المساكني (توفي سنة 896م) «أصول الدينونة الصافية».

وإذا ما انطلقنا من النقد الذي توجّهه بعض الكتابات الإباضية المعاصرة لخطاب كتاّب المقالات القدامى. فقد جاء في كتاب «الإباضية بين الفرق الإسلامية عند كتاّب المقالات في القديم والحديث» للكاتب الليبي علي يحي معمّر أن هناك اتهامات وتشنيعات ذكرها هؤلاء الكتاّب على الإباضية، حيث يشير إلى اعتبار نقل الأشعري لمقالات عن الإباضية بأنهم يكفّرون مرتكب الكبيرة[8]ويدعون إلى إمكانية استعمال العنف ضدّ السلطة السياسية غير العادلة[9] اتهاما وتشويها لمكانة هذه الفرقة الكلامية والسياسية. ويستغرب الكاتب الإباضي من حدّة موقف البغدادي عندما اعتبر حسب رأيه «الإباضية من الخوارج، وأنهم لذلك فرقة ضالة ويجب أن يقال عنها فضائح ويلتمس لها شنائع»[10].

كما يقف الكاتب أيضا عند ما يسمّيه تشنيع ابن حزم على الإباضية حيث يورد أمثلة عدّة يشترك في بعضها مع الأشعري والبغدادي ويختلف عنهم في البعض الآخر. ومن تلك الأمثلة ما ذكره ابن حزم عن تكفير هذه الفرقة لكل من أخطأ من المسلمين خطأ بسيطا، حيث يقول عنهم: «ومن حماقاتهم قول قول عبد الله بن عيسى، تلميذ بكر بن أخت عبد الواحد بن زيد المذكور؛ فإنّه كان يقول: كل ذنب صغير أو كبير، ولو كان أخذ حبّة من خردل بغير حق، أو كذبة خفيفة على سبيل المزاح فهي شرك بالله، وفاعلها كافر مشرك مخلّد في النار.»[11] ويضاف إلى ذلك ما تحدّث عنه ابن حزم حول بعض الفتاوى الفقهية الإباضية التي تتجه نحو فرعيات بسيطة كقوله:» وشاهدنا الإباضية عندنا بالأندلس يحرّمون طعام أهل الكتاب، ويحرّمون أكل قضيب التيس والثور والكبش، ويوجبون القضاء على من نام نهارا في رمضان فاحتلم، ويتيمّمون وهم على الآبار التي يشربون منها، إلاّ قليلا منهم.»[12] وفي تعليق له على ما ذكره ابن حزم، يقول علي يحي معمّر: «لا شك أنّه يقول هذا الكلام إرادة للتشنيع على الإباضية»[13]. ولم يختلف موقف الشهرستاني من الإباضية عن غيره من كتّاب المقالات من حيث عدم التحري والتحقيق فيما يذكر عنهم من مقالات، حيث يسجل عنه الكاتب الليبي عدم اعتماده على المصادر الإباضية

---

[8]. جاء في كتاب الأشعري حول موقف الإباضية من مرتكب الكبيرة : « والإباضية يقولون أنّ جميع ما افترضه الله سبحانه وتعالى على خلقه إيمان، وأنّ كل كبيرة فهي كفر نعمة لا كفر شرك وأنّ مرتكبي الكبائر في النار خالدون مخلّدون فيها.» أنظر، الأشعري، مقالات الإسلاميين، ص 110.

[9]. يقول الأشعري حول جواز استعمال السيف ضد الحكام عند الإباضية قوله: « وأما السيف فالخوارج تقول به وتراه، إلاّ أنّ الإباضية لا ترى اعتراض الناس بالسيف ولكنه يرون إزالة أئمة الجور ومنعهم من أن يكونوا أئمّة بأي شيء قدروا عليه بالسيف أو بغير السيف»، أنظر المرجع السابق، ص 125.

[10]. يحي معمر، على ، الإباضية بين الفرق الإسلامية عند كتاّب المقالات في القديم والحديث، ص 49.

[11]. ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج 3، ص 131.

[12]. المرجع نفسه، ص 127.

[13]. يحي معمر، على ، الإباضية بين الفرق الإسلامية ، ص 57.

جيلالي المستاري[1]	باحث في المركز البحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية	dmestari2014@gmail.com

ذاتها في الحكم على آرائهم، لكنّه يقف عند تحفّظه وأنه كان «أكثر دقةّ واجتهادا وتحرّيا من سابقيه، وخالفهم في عدد من المواقف تقدّر له»[14] ويرجع الدافع إلى كلّ تلك المؤاخذات المنهجية سببان رئيسيان: أماّ أولهما فهو الهدف غير المعرفي الذي يبدو أنّ أغلب كتاّب المقالات قد وضعوه لعملية التصنيف الفرقي، أي العمل على الوصول إلى العدد المقدّس الوارد في حديث الفرقة الناجية. وأمّا ثانيهما فهو الهدف الديني/السياسي لمثل هذا التصنيف حيث تتجلّى النزعة الاتهامية التشويهية للفرق المنافسة إماّ من خلال الألقاب المشينة أو محاولة إبراز الفرق المنافسة والمختلفة عن الفرقة الناجية كفرق مشتّتة منقسمة على نفسها. ومن أهم كتب أبي إسحاق ابراهيم اطفيش التي ناقش فيها العلاقة بين الإباضية والخوارج « الدعاية إلى سبيل المسلمين» ورفض فيها الوصف معتبرا إيّاه وصما، وهو عبارة عن رسالة من 19 صفحة كتبها بطلب من أحد شيوخ الأزهر (هو إبراهيم عبد الباقي)، حيث كانت الطريق إلى اعتماد المذهب الإباضي في الأزهر.

الاحتجاجات في غرداية في سنوات الألفين احتجاجات شبانية

تناول الباحث قاسم حجاج في دراسته «ميزاب: رؤية مستقبلية»[15] موضوع تكرار النزاعات الجماعاتية الميزابية- العربية أو الإباضية- المالكية، وأحصى في فترة ما قبل سنوات الألفين ما يقارب الـ الخمسة عشر (15) نزاعا محليا اختلفت أسبابها المباشرة. ومن أمثلة تلك النزاعات: النزاع بين سكان بني يزقن وحي ثنية حول أراضي آل يدر(ثانوية مفدي زكرياء) سنة 1974، النزاع بين الميزابين و عروش من المذابيح و الشعانبة حول تقسيم اراضي الاستصلاح المحاذية للضاية سنة 1985، النزاع القرارة حول تسمية مؤسسة تربوية بإسم الشيخ بيوض سنة 1989، أحداث بريان الأولى : خلاف حول نتائج الانتخابات البلدية الأولى و حول توزيع أراضي فلاحية سنة 1990. ونستطيع أن نضيف إليه أحداث سوق غرداية سنة 2004، أحداث بريان الثانية سنة 2008، وصولا إلى أحداث القرارة، وبريان، ومليكة وغرداية بين سنتي 2013- 2015، والتي عرفت سقوط عدد، غير مسبوق محليا، من الضحايا والجرحى. وإذا ما أردنا العودة إلى تصنيف تلك الأسباب والعوامل التي تبدو مختلفة ومتباعدة، سنجد أنها لا تتجاوز عناصر البناء الجماعاتي كما يحددها فرديناند تونيز أي النزاعات حول الإقليم أو الذاكرة الجماعية أو نظام المصاهرة.

لكن يبدو أنّ الاحتجاجات التي عرفتها المنطقة بداية من سنة 2004 قد عرفت عاملا جديدا هو الاحتجاجات الداخلية ذات الطابع « الجيلي المواطناتي» ضمن الجماعة الإباضية ذاتها يقودها الشباب ضد الشيوخ والأعيان. وهذه الاحتجاجات الأخيرة ليست نتاجا لأزمة الدولة الوطنية في تسيير الشأن المحلي وحسب بل تحيل إلى أزمة أخرى أكثر تعقيدا وهي أزمة الجماعة في تسيير الشأن الجماعاتي المحلي. وقد ارتبطت الاحتجاجات المحلية في المنطقة بخطاب متجانس عند « أعيان وأئمة المساجد الإباضية « يرجع الأزمة إلى سبب مركزي أطلقوا عليه «انفلات الشباب»[16]، ومن هنا كانت أهمية تحليل المسألة الجيلية والرجوع إلى السير الذاتية والمسارات الاجتماعية للقيادات الشبانية في تحليل الاحتجاج المحلي «

---

[14]. المرجع السابق، ص 73.

[15]. حجاج قاسم، مزاب. رؤية مستقبلية، مع مدخل إلى قضايا المستقبليات، غرداية، العالمية للنشر، الطبعة الأولى ، 2006.

[16]. كانت أهم استنتاجات المتابعة الميدانية لبعض خطب الجمعة في المساجد الإباضية في الفترة ما بين 2009 و2013.

جيلالي المستاري[1]	باحث في المركز البحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية	dmestari2014@gmail.com

الجماعاتي». عبرت هذه الاحتجاجات «الداخلية « عن شكل من أشكال أزمة نظام جماعاتي يتعرض للنقد وهو ما اعتبر عند أعيان الإباضية، من خلال بعض الخطابات المنبرية، تهديدا للوجود الجماعاتي ذاته مصدره « الانحراف الجيلي».

يمكن القول أن ما عرف بإضراب التجار سنة 2004 لم يكن مصدر القرار فيه الهيئات العرفية التقليدية للمجتمع الميزابي، من عزابة أو مجلس عبد الرحمن الكرثي، بل كان مصدر القرار في هذه الحركة الاحتجاجية (التجارية -السياسية) فئات شبانية متصلة بجمعيات مدنية. وقد استمر هذا التوجه الموازي للهيئات العرفية في البروز وتمثل ذلك في « تسيير» الانتخابات المحلية سنة 2007، حيث كانت العادة سابقا أن تحدد « الهيئات العرفية « «قوائم حرة» (غير حزبية) في البلديات يصوت عليها الإباضيون بشكل موجّه، لكن ما حدث في 2007 أنّ الأيقونات الشبانية الإباضية الجديدة لم تنح هذا الاتجاه بل اختارت، على سبيل المثال، حزبا سياسيا، كإطار للترشح[17]، هو جبهة القوى الاشتراكية[18] الذي كان يتزعمه شرفيا حسين آيت أحمد. وقد بدا من خلال هه الانتخابات المحلية نجاح هذا الحزب بعدد كبير من المقاعد في عدد من بلديات غرداية التي تعرف تواجد إباضيا معتبرا، وهو ما يعني أن فئات المجموعة الإباضية من الشباب والنساء بالخصوص صوتت لهذا الحزب، وبالأحرى صوتت لجيل جديد من القيادات الشبانية المحلية، بما طرح بجدية حدود سلطة الهيئات العرفية. وتواصل هذا التوجه الموازي لسلطة الهيئات العرفية وبدا جليا من خلال الأحداث والاحتجاجات التي عرفتها المنطقة بين 2008 و2015، حيث نذكر على سبيل المثال : أنّ احتجاجات 2008 في بريان سيّرها عمليا النشطاء الشباب من الجانب الإباضي، ولم يكن تدخل الهيئات العرفية وأعيان المنطقة فعالا بشكل كاف بل تم التشكيك في وساطتهم ووجاهة مواقفهم من طرف بعض فئات المجتمع المحلي واعتبروهم « مستخدَمين أداتيا» من طرف الهيئات الرسمية.

كما تعدّ أحداث المسجد العتيق بقصر غرداية سنة 2011، مؤشرا آخرا على الشرخ الجيلي بين الشباب وشيوخ حلقة العزابة وباقي الأعيان داخل الجماعة الإباضية، حيث عرفت توجه بعض الناشطين السياسيين والحقوقيين الميزابيين إلى الدعوة إلى « الثورة على الهيئات العرفية « وحلقة العزابة داخل قصر غرداية بالخصوص، من خلال المطالبة بإدراج الجيل الجديد من الشباب الناشط في الجمعيات الحقوقية ونشطاء المواطنة ضمن هذه الهيئة الدينية العرفية، بل وتمّ الحديث فيما بعد عن ضرورة إنشاء «عزابة حرة»، بما يحيل إلى اقتباس الكلمات من قاموس « ثورات الربيع العربي» في تلك الفترة. وحدثت احتجاجات ونزاعات داخل المسجد العتيق اتخذت منحى عنيفا بين المؤيدين لهيئة العزابة والمناهضين لها، وكان من نتائجها اعتقال عدد من الشباب المحتج والزج بهم في السجن.

وللإشارة، فقد استطاعت الهيئات العرفية أن تعيد سيطرتها على العملية الانتخابية في تشريعيات سنة 2012، بوضع قوائم حرة فازت من خلالها بمقعدين في البرلمان من أصل خمسة. بل وتم تغيير القيادات المحلية لحزب القوى الاشتراكية

---

[17]. لم تكن ظاهرة الاستخدام الأداتي للأحزاب السياسية كإطار للترشح من طرف النخب المحلية استثناء في غرداية، بل عرفته مدن وقرى جزائرية أخرى في تلك الفترة، حيث بدأ الحديث أكاديميا، ثم إعلاميا فيما بعد، عن المنتخب المتجوّل. أنظر في هذا السياق : حسن رمعون، مصطفي مجاهدي، فؤاد نوار وجيلالي المستاري، «المواطنة أمام تحديات المحلي. المنتخب المحلي والممارسات الانتخابية»، ضمن الكتاب الجماعي، حسن رمعون (إشراف)، الجزائر اليوم. مقاربات حول ممارسة المواطنة، منشورات مركز البحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية، وهران، 2012.

[18]. حزب القوى الاشتراكية حزب سياسي ذو توجه « وطني اشتراكي « نواته الانتخابية في منطقة القبائل في الشمال أي مدينتي تيزي-وزو وبجاية، لكن بدأت هيأته الناخبة تتوسع خاصة في منطقة غرداية بداية من سنة 2007.

جيلالي المستاري[1]	باحث في المركز البحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية	dmestari2014@gmail.com

لتتحوّل إلى مؤيد للهيئات العرفية، حتى أنّه كان من بين شعارات هذا الحزب في انتخابات 2012 بالمنطقة « إعادة الاعتبار للمسجد العتيق»، وهي «رسالة» إلى رفض الحزب استخدامه من طرف شباب الإباضية للمسّ بسلطة الهيئات العرفية.

وعندما نقف عند النزاعات الجماعاتية في أطراف قصر غرداية وبني يزقن ومليكة والقرارة سنة 2015، والتي تحوّلت إلى أحداث عنف دامية سقط فيها لأول مرة في المنطقة منذ الاستقلال عدد من الضحايا أكثرهم في القرارة إثر أحداث الملعب البلدي بين مناصري فريقين محليين، بدا، من خلال الخطاب الإعلامي على الأقل، وكذا خطابات بعض أعيان المنطقة على المستوى المحلي، أن محرّك الأحداث في الطرفين، بما فيذلك الجماعة الإباضية، كان الجيل الجديد من الشباب. ولم تستطع الهيئات العرفية، من الجماعتين، أن تفرض هيمنتها ومراقبتها في تسيير الأزمة على هذا الجيل مما استدعى فرض حالة حصار أمني على المنطقة لا زالت آثارها بارزة إلى اليوم.

أهمية مدخل الظاهرة الجيلية في تحليل أزمة الجماعة الإباضية اليوم

يبدو من خلال الأمثلة سالفة الذكر أن الاحتجاجات الجماعاتية منذ سنوات الألفين هي احتجاجات ذات وجه جيلي، ولا تنمّ عن عمق أزمة الدولة الوطنية فحسب، كما أشار إلى ذلك ناصر جابي في دراسته حول أزمة الانتقال الديمقراطي في الجزائر ومسألة الأجيال الثلاثة[19]، بل إلى أزمة السلطة الجماعاتية وإمكانية تواصل تأثير عناصر تشكل واستمرار الجماعة الإباضية. ومن هنا كان من الأهمية بمكان فتح مجال المساءلة البحثية حول الظاهرة الجيلية، كما أسلفنا الذكر، وما ينبغي الوقوف عنده من خلال المقابلات مع الفاعلين المحليين وشركاء البحث من العزابة في مختلف القصور الميزابية أن هناك خطابا هيمن على المستوى المحلي داخل المساجد وفي اللقاءات العامة للهيئات العرفية حول مسألة ما سماه أئمة الإباضية بـ" انفلات الشباب». وقد أورد أحد أئمة الإباضية في قصر «العطف» بغرداية مثالا شبه فيه الانفلات الشبابي بالفيروس الذي يهدد صف الجماعة مثلما تهدد الفيروسات العابرة صحة الجماعة، وهو ما يشير إلى خطاب حول حدود السلطة الدينية لحلقة العزابة وتراجع قدرتها، ولو ظرفيا، على الضبط، والتحكم ومراقبة الأفكار والسلوكيات الدينية للأجيال الجديدة منن شباب الجماعة الإباضية داخل فضاء القصر[20].

ولفهم معنى هذا التحوّل الجيلي، لا مناص من الرجوع، على المستوى المنهجي، إلى السير الذاتية ومسارات تلك القيادات الشبانية المحلية، سواء على مستوى الجمعيات المدنية أو الحركات الدينية الإحيائية، مثل جماعة التبليغ أو القرآنيين، التي تمثّل تهديدا آخر للمخيال العقائدي الإباضي[21]. ولوعدنا إلى مسار أحد الناشط الحقوقيين وأحد أيقونات الحركة الاحتجاجية السياسية في قصر غرداية وقصورها الأخرى في سنوات الألفين، سنجد معطيات ذات دلالة في مساره تحيل،

---

[19]. أنظر، جابي ناصر، الجزائر. الدّولة والنخب والحركات الاجتماعيّة، الجزائر، دار الشهاب، 2008.

[20]. نشير في هذا السياق أن هناك عديد الدراسات التي تناولت موضوع أزمة الانتقال الجيلي في الجماعة الإباضية ومشكلة الشرعية في بناء المؤسسات العرفية نذكر على سبيل المثال لا الحصر: دراسات قاسم حجاج ومنها كتابه : مزاب رؤية مستقبلية ، محمد بافلح ودراسته حول: تصورات الطلبة للتغير الاجتماعي في المجتمع الميزابي، عبد العزيز خواجة: نظام العزابة ومنطق الضبط والمراقبة.

[21]. أنظر حول هذا الموضوع : بوفريخة أسامة، فضاءات الاحتجاج وأنساقها الرمزية. مقاربة أنثروبولوجية تأويلية لإباضية وادي ميزاب، تونس،تونس، دار زينب للنشر والتوزيع، ط1، 2022.

مجلة أسئلة ورؤى

جيلالي المستاري[1]	باحث في المركز البحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية	dmestari2014@gmail.com

على مستوى المعنى، إلى المسار التكويني والاجتماعي للجيل الجديد من الشباب الإباضي الذي يرفض السلطة الجماعاتية التقليدية ويحتج على هيمنتها، ويرى في المشاركة السياسية للشباب من موقع» الاندماج المواطني»، وليس الوطني فحسب، سبيلا لتجاوز الأزمة الجماعاتية في غرداية ووسيلة لتجسيد مطالب المجتمع المحلي في منطقة ميزاب.

وأبرز ما يمكن استنتاجه من المسار التكويني لهذا الناشط الحقوقي أنه تكوّن من الناحية التعليمية ونشأ من الناحية الاجتماعية خارج منطقة غرداية، أي أن تنشئته تمّت خارج مراقبة السلطة الجماعاتية، وهو ذو تكوين جامعي يمكّنه من التحكّم في اللغة الأجنبية إضافة إلى العربية والمزابية، ومن عائلة أعيان لها مكانتها في غرداية. وعندما استكمل الشاب دراسته جاء إلى غرداية ليشتغل فيها، وبدأ نشاطه السياسي في جمعيات محلّية، ثم في حزب القوى الاشتراكية حيث أصبح عضو مكتبه الوطني والأقرب إلى زعيمه، وكان وراء نجاح الحزب الباهر في الانتخابات المحلية سنة 2007، ليحدث خلاف بينه بين الحزب بعد أزمة المسجد العتيق في غرداية وتمّ إبعاده من الحزب بحجج تتعلق بعدم الانضباط الحزبي، لصبح بعدها عضوا بارزا في رابطة الدفاع عن حقوق الانسان، وسجن مرات عديدة كان آخرها سنة 2018. وقد حدث سجال حول دفنه في المنطقة بعد وفاته، بما يؤكد عمق الشرخ الجيلي بعد الأحداث الأخيرة في غرداية. ويؤكّد هذا المسار الشخصي إلى أنّ أهم أيقونة شبانية محتجّة على الوضع الجماعاتي لم تنشأ تحت مراقبة السلطة الجماعاتية المحلية بل نشأت خارجها، لكنها استطاعت أن تجد لمواقفها حاضنة محلية لا زالت آثارها مستمرة إلى يومنا هذا.

خلاصة

بيّنت الملاحظات الميدانية أنّ القصور الإباضية ليست على درجة واحدة فيما يتعلق بهذا الاحتجاج الجيلي، ولذلك فإن تحليل أزمة السلطة الجماعاتية والظاهرة الاحتجاجية الجماعاتية ما هي إلا تعبير عن أزمة داخل قصور بعينها دون أخرى، إذ نلمس مثلا ترهّل سلطة الهيئات العرفية وضعفها في قصر غرداية جلياً مقارنة بقصور أخرى حيث لا زالت السلطة الجماعاتية تتحكم في أشكال الضبط وشروط إعادة الإنتاج مثل قصر بني يزقن.

ويشكّل الطابع الجديد للظاهرة الاحتجاجية والنزاعات الاجتماعية والسياسية المحلّية في منطقة غرداية مع بداية سنوات الألفين ازياحا في فهم النزاع المحلي على المستوى التحليلي والمنهجي من علاقة معقدة بين جماعتين محليتين متجاورتين كما كان الحال في فترات سابقة، إلى تحليل النزاع داخل الجماعة الإباضية ذاتها. وأهمّ ما يميز هذا الشكل الاحتجاجي الجديد أن ملمح الفاعلين الحاملين له أي الأجيال الشبّانية الجديدة، إضافة إلى مضامينه ومطالبه التي تعدّت الأبعاد والعناصر ذات علاقة بهوية الجماعة، من إقليم وذاكرة ونظام مصاهرة، إلى مضامين بنيوية، سياسية وثقافية، تخصّ كينونة النظام الجماعاتي نفسه ومبررات مشروعيته، وهو ما يحيل إلى القول بأن الأزمة الجيلية في سياق الدولة الوطنية، كما فسّرتها بعض الدراسات السوسيولوجية، تعدّت إلى «أزمة جيلية داخل الجماعة الإباضية المحلّية».

مجلة أسئلة ورؤى

جيلالي المستاري[1]	باحث في المركز البحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية	dmestari2014@gmail.com

ولذلك نعدّ دراسة السيرورات الاجتماعية المحلّية والسير الذاتية للنخب الجديدة على مستوى المنطقة مدخلا منهجيا ضروريا اليوم لفهم وتحليل الاحتجاج الجيلي داخل الجماعة الإباضية، بما يؤسّس لتراكم معرفي يساعد على أشكلة الظاهرة الاحتجاجية وتفسيرها وفق الثلاثية المفاهيمية المذكورة سلفا: المحلّي، الجماعة/المجتمع، والمسألة الجيلية.

مجلة أسئلة ورؤى

جيلالي المستاري[1]	باحث في المركز البحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية	dmestari2014@gmail.com

معالم ببليوغرافية

1. الأشعري، أبو الحسن علي بن إسماعيل(2005)، مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، تحقيق وتصحيح: هلموت ريتر، النشرات الإسلامية لجمعية المستشرقين الألمانية، بيروت، دار النشر كلاوتس شقارتس فرلاغ، المعهد الألماني للأبحاث الشرقية، الطبعة الرابعة.
2. بعمارة عيسى (تقديم) (1990)، اتفاقيات المجالس العامة لميزاب، باتنة، دار الشهاب.
3. بوفريخة أسامة (2022)، فضاءات الاحتجاج وأنساقها الرمزية. مقاربة أنثروبولوجية تأويلية لإباضية وادي ميزاب،،تونس، دار زينب للنشر والتوزيع، ط1، 2022.
4. حجاج قاسم، (2006) مزاب. رؤية مستقبلية، مع مدخل إلى قضايا المستقبليات، غرداية، العالمية للنشر، الطبعة الأولى,
5. حجاج، قاسم «مدخل إلى تحليل نسقي شامل للأزمة القرارية»، نشرت في موقع جريدة «غرداية نيوز» الدورية، ديسمبر 2013.
6. خواجة عبد العزيز 2017))، الضبط الاجتماعي ومعوقاته في المجتمعات التقليدية. نظام العزابة بوادي ميزاب (الجزائر) أنموذجا. دراسة سوسيوأنثروبولوجية. غرداية، مكتبة الكتاب الجامعي .
7. رمعون حسن ، مصطفى مجاهدي، فؤاد نوار و جيلالي المستاري (2012)» المواطنة أمام تحديات المحلي»، (كتاب جماعي) حسن رمعون (الاشراف)، الجزائر اليوم: مقاربات حول ممارسة المواطنة، وهران، منشورات الكراسك،
8. كلودين شولي, « أنثربولوجيا و/أو سوسيولوجيا ؟ إلتفاتة إلى الخلف لدراسة ممارساتنا في هذين الحقلين », / Insaniyatإنسانيات، 27، 5-9، 2005.
9. المستاري جيلالي (2012) « الخطاب الديني و مسألة المواطنة في الجزائر اليوم: قراءة في خطب منبرية بمساجد وهران»، ضمن كتاب جماعي، حسن رمعون(إشراف)، الجزائر اليوم: مقاربات حول ممارسة المواطنة، وهران (الجزائر)، منشورات مركز البحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية.
10. معلوف، أمين(1999) الهويات القاتلة، ترجمة: نهلة بيضون، دمشق، دار الجندي، ط1.
11. ناشي محمد (2013)، «الفضاءات العمومية ضمن السياق المغاربي: عناصر من أجل بناء إشكالية سوسيوتاريخية»، ضمن حسن رمعون وعبد الحميد هنية (إشراف)، الفضاءات

جيلالي المستاري[1]	باحث في المركز البحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية	dmestari2014@gmail.com

العمومية في البلدان المغاربية، وهران (الجزائر)، منشورات مركز البحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية.

12. هونيث، أكسل (2015)، الصراع من أجل الاعتراف. القواعد الأخلاقية للمآزم الاجتماعية، ترجمة جورج كتورة، بيروت، المكتبة الشرقية

13. يحي معمر، علي (2003) ، الإباضية بين الفرق الإسلامية عند كتاّب المقالات في القديم والحديث، غرداية- الجزائر، منشورات جمعية التراث، الطبعة الثالثة .

14. Aicha. Addi-A., Sociologie et histoire des algériens Ibadites, Imprimerie, El-Arabia, Ghardaïa, 1977.
15. Ben youcef. B. (1992), Le M'zab: Espace et société, Alger, Imprimerie Abou Daoud.
16. Cherifi.B., Etudes d'anthropologie historique et culturelle sur le M'ZAB,Thèse de Doctorat en anthropologie , sous direction du Pr. Pierre- Philippe Rey, Paris VIII,2008
17. Durkheim É. (1889). Communauté et société selon Tönnies , note de lecture. Dans le cadre de la collection: «Les classiques des sciences sociales».
18. Geertz clifford (1992), Observer l'Islam, La découverte.
19. Karl Mannheim , Le Problème des générations (1928), trad. Gérard Mauger, (Paris : Nathan, 1990)
20. LAMINEAnne-Sophie (2018), « L'islam des jeunes, un révélateur de nos impensés sur le religieux ? », in Archives de sciences sociales des religions, Paris, Editions EHESS.
21. Maurice Halbwachs (1997), La mémoire collective, Paris, Albin Michel, (1ère édition 1957).
22. SALHI Mohamed Brahim (2000), « Eléments pour une réflexion sur les styles religieux dans l'Algérie d'aujourd'hui », in Revue Insaniyat, N° 11, Oran (Algérie), Editions CRASC.

جيلالي المستاري[1]	باحث في المركز البحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية	dmestari2014@gmail.com

23. Tarot. C., « communauté : de quoi est-ce le mythe ? », in Qu'est - ce qu'une communauté ?(Dir), Sylvain. P., Mana, Revue de sociologie et d'anthropologie, Paris : l'Harmattan, 2009
24. Tönnies Ferdinand (2010), Communauté et société, Paris, Puf.
25. Tönnies Ferdinand (2010), Communauté et société, Paris, Puf.